عندما خرج «ماني» آخر الأمر بعد ثلاثة أيام من عزلته لم يكن يحتفظ في كلماته ولا في صوته بأيّ أثر للشكوك التي كانت قد هزّته وأقبل يُعلن للأتباع الذين كانوا لا يزالون كثيرين بانتظاره أنّ النصر قريب وأنّ «الإمبراطورية» في سبيلها لأن تُكْسَب، وأنّه بسبب هذا الأمل بالذات ينبغي أن تصل الرسالة بلا رَيْث إلى أبعد الشعوب. وطلب من أفضل تلاميذه أن ينتشروا في أقاليم الإمبراطوريات الأربع، من (الصين) إلى (مصر(و(أكسوم) [إحدى مدن (الحبشة) المهمّة]، ومن (روما) إلى (تدمر). «كانت الديانات السابقة تتوجّه إلى منطقة واحدة، إلى لغة واحدة. وديانتي مصنوعة بحيث يجب أن تظهر في جميع المناطق وبجميع اللغات في آن».

وأمّا هو فإذ كان في الوقت الحاضر أقلّ حريّة في تنقّلاته فقد شرع في الكتابة بحميّة تُقارب الجنون. مئات الرسائل التبشيرية وأناشيد ومزامير وكتباً لم يكن يكتفي بخطّها بيده، بل كان يُزخرفها ويُزيِّنها بالرسوم ويُذهِّبها، وكان التذهيب الفرصةَ الوحيدة التي تتنازل فيها أصابعه لِحسّ الذهب.

وإلى هذه الحَقبة يرجع أحد أعجب المؤلّفات في كل العصور، كتاب كان «ماني» قد عنونه ببساطة «الصورة»، وفيه شرح مجموع معتقداته في سلسلة من الرسوم من غير استعانة بالكلمات. وهل كانت لديه أفضل من هذه الوسيلة للتوجُّه إلى جميع الناس من خلف حاجز اللغة؟